اللقاء الثالث من لقاءات التفسير
في شهر رمضان المبارك من عام 1437هـ

الجزء الرابع: سورة آل عمران
الآيات 164 – 174

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد) /http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة و السلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين .

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونعترف بمنّته علينا حيث خصّنا بالقرآن ، وأرسل إلينا الرسول الكريم ، تلا علينا آياته ، وأنزل هذا القرآن، وابتدأ نزوله في شهر رمضان، فأنعم علينا بصيامه وقيامه وقراءة القرآن فيه، فنحن معترفين بمنّة الله ، سائلين الله أن يعيننا على هذه الأعمال الشريفة التي شرفنا بها سائلين الله أن تكون منّة مقبولة مشكورة تُغفر بها الزلات وترفع بها الدرجات. اللهم آمين.

هذا درسنا الثالث ونحن نتدارس آيات من كتاب الله نتعرّف فيها على عقيدتنا في أنبياء الله وبما يحدث لهم ويصدر منهم وكيف كانوا يتصرفون وكيف كانوا يوفّقون وبأي شيء يُخاطبون؟

وها نحن في سورة آل عمران نسمع عن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، نسمع ربنا يقول لنا: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }** [آل عمران:164].

وهذه منة عظيمة علينا أن نتذاكرها ونشكرها، نقرأ تفسير الشيخ السعدي:

هذه المنّة التي امتنّ الله بها على عباده أكبر النعم، بل أصلها ، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة.

أكبر النعم على المؤمنين أن أرسل إليهم الرسول يقول: بل أصلها.

أنقذهم الله به من الضلالة ، المقصود إنقاذهم من الضلالة بحيث دلهم صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم، فلا زالت هذه منة تشهدها أمة النبي صلى الله عليه وسلم ، أرسل رسوله إلى قيام الساعة بكونه صلى الله عليه وسلم يدل الخلق فيوقظهم من الضلالة وبما أتى به يعصمهم الله من الهلكة.

فقال: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ }** يعرفون نسبه وحاله ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحًا لهم، مشفقًا عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها.

يعرفون نسبه وحاله ولسانه، ليس غريبًا عليهم، والناس يقبلون ممن عرفوا أحواله يقبلون كلامه حتى لو بدون دليل فكيف لو معه دليل! من المؤكد أنه سيكون أولى وأقرب في القبول ، وهذا أمر متعارف عليه ؛ لأنه لو كنا نصحب أحد نعرف حكمته وأمانته ونعرف أخلاقه فأرشدنا إلى أمر أو اقترح علينا اقتراح سنقبله بناء على حاله؛ فمعرفة الحال موجبة لقبول الدعوة، فهذا النبي الكريم كانت له هذه الصفة أنهم يعرفون نسبه وحاله ولسانه وهو من قومهم وقبيلتهم.

وأما صفاته فكان ناصحًا لهم مشفقًا عليهم، ثم أتت مهمّته أن يتلوا عليهم آيات الله يعلمهم ألفاظها ومعانيها.

{وَيُزَكِّيهِمْ} من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر مساوئ الأخلاق.

يزكيهم بمعنى يطهرهم من هذه الأوساخ إن كان في أصل عقيدتهم فهو من الشرك وإن كان في أعمالهم فهي من المعاصي، وإن كان في مسلكهم فهو يطهرهم من الرذائل وسائر مساوئ الأخلاق.

{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} إما جنس الكتاب الذي هو القرآن.

فيعلمهم كيف يتلوا آياته أو المراد بالكتاب هنا الكتابة ، يريد أن يبين الشيخ ما الفرق بين يعلمهم الكتاب وبين يتلو عليهم آياته؟ فقال:

{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله **{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}** المراد به الآيات الكونية.

وتلاوة الآيات الكونية بمعنى التنبيه عليها ومعرفة نعمة الله بها فالتفكير بالربوبية يؤدي إلى الاعتراف بالألوهية. فكأن يتلو عليهم آياته يكون بمناقشتهم في هذه الآيات وبيانها وبيان أنها تدل العقل السليم على رب العالمين وعلى استحقاقه في الألوهية، هذا معنى يتلو آياته، ويعلمهم الكتاب أي يعلمهم القرآن.

أو المراد بالكتاب –هنا– الكتابة فيكون قد امتنّ عليهم بتعليم الكتاب والكتابة.

والكتابة ماهي أهميتها؟

فيكون قد امتنّ عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التي بها تدرك العلوم وتحفظ.

هذه منة يجب الاعتراف بها وشكرها ، على من؟ على المؤمنين الذين يؤمنون بالله العظيم ويؤمنون برسوله الكريم، بأي شيء؟ إذ بعث فيهم رسوله، من أنفسهم فهو ليس غريبًا عنهم فيستغربونه وتكون الغرابة سبب للامتناع، ماذا يفعل الرسول؟ يتلو عليهم آياته، يتلو على قومه الآيات التي هي القرآن، يزكيهم أي يطهرهم في عقيدتهم وفي أعمالهم وفي سلوكهم في الحياة ويعلمهم الكتاب تصبح إما أن يعلمهم القرآن خاصة أو يعلمهم الكتابة.

والحكمة هي السنة التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها وينبههم إلى أسرار الشريعة.

وكيف أنّ من حكمة الله قُطعت يد السارق أو جُلد الزاني أو مُنع الربا، ومُنع شرب الخمر ، يناقشهم ويبيّن لهم ما يزيل شبهتهم في كل شأن، فيعرفون حكمة الله عز وجل وكيف أوصل الخلق لأحسن حال.

الحكمة بمعنى السنة التي هي شقيقة القرآن، أو الحكمة عمومًا بمعنى وضع الأشياء مواضعها.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام وما تنفيذ به الأحكام، وما به تُدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين.

{وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ} بعثة هذا الرسول {لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكى النفوس ويطهرها، بل ما زيّن لهم جهلهم فعلوه ولو ناقض ذلك عقول العالمين.

إذا قبل إرسال الرسول كانوا لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا الشيء الذي يزكي أنفسهم، لكن كانت طريقتهم كما قال الشيخ: مازين لهم جهلهم فعلوه ولو ناقض ذلك عقول العالمين! لا يعرفون كيف يصلون لربهم ولا يعرفون ما يزكي أنفسهم ويطهرها ويتخبطون ويستوردون الباطل أو يُصدرونه من داخل أنفسهم. ومن ثم يكونوا قد جنوا على أنفسهم جنايتين:

الجناية الأولى: أنهم تركوا الطريق المستقيم مع يسره وسهولته وبيانه وأن الله قد امتنّ به عليهم.

والجناية لثانية: يكون في كونهم اختاروا طريقًا شاقًّا ضلوا به وأضلوا.

ثم قال سبحانه وتعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وهذه أحد الأحوال التي مرّ بها المسلمين وتكلمت عنها هذه السورة العظيمة سورة آل عمران وهي غزوة أحد وما كان فيها من بلاء عظيم على المسلمين ظهر فيها التمييز بين أهل الإيمان وأهل النفاق فكان لله عز وجل حكمة بالغة تتبيّن من خلال ما سنقرؤه في الآيات القادمة

هذه تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم أحد وقتل منهم نحو سبعين .

سبعين من أصحاب النبي الكريم من أفاضل أصحاب النبي الكريم، ومنهم فقد النبي صلى الله عليه وسلم لعمه، وكان شيئًا عزيزًا على نفسه قد وقع موقعه في نفس النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال الله: إنكم { قَدْ أَصَبْتُم} من المشركين { مِّثْلَيْهَا} يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار.

{قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا} أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهُزمنا؟!

فأجاب الله:

{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ} حيث تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون.

هذه الهزيمة ابتلاء حقيقي لكن له سبب من جهة أنفسكم، وهو التنازع ومعصية الرسول، وهذا أمر لا يتخلف أبدا، كل مرة يتنازع الخلق فيها بعد معرفتهم الحق يتنازعون ويعصون فمصيرهم لابد أن يكون الهزيمة ولابد أن يكون وراءه ذه اب لهذه البركة ولا يتحقق مع الاختلاف ومعصية الرسول أي خير. وربما لما قرأنا في أول موطن في سورة البقرة كيف أن أهل الكتاب بعد ما جاءهم الكتاب وجاءهم الخبر الحق بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، بدل ما يستفيدوا من الكتاب لحل النزاع جعلوه موطن للنزاع. لما قرأنا ذلك ربما كان عجيبا أن يأتي الكتاب لحل النزاع ويجعلوه سببا للنزاع.

لكن لما ننظر في حال المسلمين نجد ما يشبه ذلك وهذا يتضح هنا في هذا الموقف أن الرسول الكريم في هذه الغزوة قد أمرهم بحماية ظهر المسلمين، وأن لا يتحركوا مهما حصل ما حصل فحصل أمرين:

١. وهو الاختلاف الذي أدى إلى النزاع.

٢. والأمر الثاني حصلت المعصية.

فعودوا على أنفسكم باللوم واحذروا من الأسباب المرديّ.

وهذه أسباب مردية دائما أمام منة الله بإرسال الرسول المفروض يكون الإقبال ويكون الاهتمام بالطاعة وعدم المخالفة وبذل الجهد في ذلك، وليس أن يعود الإنسان مرة أخرى متابعا لهواه! هذا ليس شكرا لنعمة الله، إنما هذا كفر بنعمة الله.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم،

قادر على أن يمنع عنكم، قادر على حفظكم.

ولكن له أتمَّ الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم {ذلك ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض}.

ولذا استشهد بقوله تعالى: {ذلك ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن} هناك حكمة {ليبلوا بعضكم ببعض}.

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مردّ له ولابد من وقوعه.

ولذلك قرر الشيخ المسألة بقوله:

والأمر القدري –إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أُمروا بالقتال.

{ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: ذبًّا عن دين الله، وحماية له وطلبا لمرضاة الله.

{أَوِ ادْفَعُوا} عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن {قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ}

هذه الآيات تبيّن أن الله لما أوقع هذه المصيبة أوقعها ليتبين المؤمن من المنافق، من المنافق هذا؟ المنافق لما أُمر بالقتال قيل له تعالوا قاتلوا في سبيل الله يعني ذبًّا عن دين الله وطلبا لمرضاته، إذا لم تكن لكم نية صالحة على الأقل ادفعوا، ادفعوا عن محارمكم وبلادكم، فأبوا ذلك واعتذروا، اعتذروا بأن قالوا ماذا؟

{قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ} أي: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذَبَة في هذا،

كأنهم يقولون أنتم لستم شكل أهل قتال. {قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ} لو علمنا أنكم صادقين في الخروج لقتالهم لاتبعناهم، أو لو علمنا أنه سيقع القتال، نحن نتصور أنكم ستخرجون فقط يعني تلقونهم، فإذا ت لاقى الطرفين تراجع الطرفين، وهذا كلام لا يقبله عقل.

سيذكر الشيخ كيف أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون مقبولا إنما هو كذب وحجة واهية لا يقبلها أي عاقل، فكيف بالمؤمنين الفطنين!

قد علموا وتيقّنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد مُلئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم،

بما كان يوم بدر.

وأنهم قد بذلوا أموالهم وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟

بأي عقول تقولون أنه لا يتصور بينهم قتال!

خصوصًا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل! ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين. قال تعالى: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ} أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين {أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وأفعالهم مايبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم.

وهذا الأمر ليس جديدا على المنافقين. إنما لما يفكر الإنسان في هذه المسألة يقول كيف يتركون منة الله عليهم بالرسول الكريم ويبقون بهذه الطريقة يتعاملون معه؟! والحقيقة مهما تعجبنا من هذه الحالة التي هم فيها سنرى أمثالها في واقعنا.

كيف يتعدّون على سنة النبي صلى الله عليه وسلم ويتعذرون بأعذار لا يمكن قبولها! ومع ذلك يعتبرون نفسهم من أهل الإيمان.

ومنه قولهم: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ} فإنهم قد علموا وقوع القتال.

يعني نريد نصرتكم، هذا كذب، هم يعلمون أن هناك قتال. وإلا لماذا خرج المسلمين وكيف جاءت أخبار الكافرين وأنهم خرجوا بعدتهم وعتادهم!

ويستدل بهذه الآية على قاعدة "ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما" لأن المنافقين أُمروا أن يُقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان.

يعني مادام قيل لهم قاتلوا في سبيل الله، ولو لم تقاتلوا في سبيل الله فعلى الأقل المدافعة عن العيال والأوطان. وهذه المصلحة الأدنى وفي النهاية لابد لكم من الخروج.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} فيبديه لعباده المؤمنين ويعاقبهم عليه.

وهذا حال الله مع المنافقين ومع كل الذين يبطنون مالا يظهرون، الله يبدي لعباده المؤمنين ما هم عليه المنافقين وأهل الباطل، والله يعاقبهم أيضا. ولما يميز المؤمنين ما هو عليه حال المنافقين تجدهم يبصرونهم بصرا نافذا، ويعرفون مآل أفعالهم، ولذا لا يلامون بكونهم يدفعوهم ويمنعوهم ويردوا على أفكارهم وشؤونهم.

على كل حال من عرف منة الله بالرسول الكريم استعجب من هؤلاء المنافقين.

ثم قال تعالى: {الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره.

يعني مصيبة أخرى من مصائبهم، أنهم جمعوا بين التخلف عن الجهاد وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره.

قال الله ردًّا عليهم: { قُلْ فَادْرَءُوا} أي: ادفعوا {عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.

يعني أنتم ادفعوا عن أنفسكم الموت إذًا إذا كان خروجهم سبب الموت! فإن كنتم صادقين فادفعوا عن أنفسكم أنتم الموت.

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى.

وهذا شيء خطير جدا يجب أن نفكر فيه، لأن الله قال : {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ} معناها هم عندهم خصلة إيمان وعندهم خصلة كفر، فلما ظهر منهم ماظهر تبين أن إحدى الخصلتين غلبت عليهم وهي خصلة الكفر.

استنتج الشيخ أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى وهذا شيء خطير جدا يجب أن يكون منا على بال.

ثم قال ردًّا عليهم:

{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}.

هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم وما منّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة.

هذه الآيات الكريمة التي سمعناها تجعل هؤلاء القتلى قد تُفضِّل عليهم بالقتل والشهادة، فبعد المنة بالرسول أتت المنة بالقتل في سبيل الله فقيل ردا عليهم {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ففي هذا ردّ عليهم ، وفيه أيضًا بيان ما منّ الله عليهم، وأيضا يتضمن تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم ويتضمن نشيط الأحياء للقتال في سبيل الله وعدم الجبن والخوف من التعرض للشهادة.

فقال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله {أمواتا} أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفُقِدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواتها من جُبن عند القتال، وزهد في الشهادة {بل} قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم {أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ} في دار كرامته.

أي في الحقيقة لا تظن أنه فاتهم شيء فإن الدنيا ليست بشيء يفوت، بل هم حصل لهم أعظم من ذلك.

ولفظ: {عِندَ رَبِّهِمْ} يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم.

والعندية تقتضي أن درجتهم عالية وأنهم قريبين من ربهم.

{يُرْزَقُونَ} من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم.

فلا يستطيع وصفها لأنها غيب، قل ما شئت من النعيم ومع هذا لن تبلغ حقيقة النعيم.

ومع هذا {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم وفرحت به نفوسهم ؛ وذلك لحسنه وكثرته وعظمته وكمال اللذة في الوصول إليه وعدم المنغص.

اجتمع لهم الخير كله ما هم فيه من نعيم كثير وعظيم وحسن وكامل اللذة، ومن جهة أخرى ما فيها منغصات كما هو معلوم الدنيا طبعها وشأنها لابد فيها من تنغيص، من ظنّ أن يأتيه فرحة تامة ليس فيها تنغيص ما عرف حقيقة الدنيا! لابد أن يأتيه من التنغيص ما يأتيه. وهذا سيقابله هناك الراحة التامة والنعيم العظيم وعدم المنغص.

فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور، وجعلوا {يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ} أي: يبشر بعضهم بعضا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا.

وهذا من أعظم الأشياء ! أن الشهداء يأتيهم أخبار عن إخوانهم اللذين سيلحقون بهم فيعرفون لحقوهم بهم، {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ} أي معناها ما ماتوا معهم، هم سبقوهم ثم يعلمون أنهم قد قتلوا وأنهم سيلحقوهم ويجتمعوا بهم، وهذا أيضا من نوع البشرى تدل على شيء لطيف جدا، أنهم كانوا يستأنسون بالاجتماع حول نصرة الدين في الدنيا، وكانت ساحة الجهاد أحد مواطن الاجتماع، فما يتفرقون حتى بعد قتلهم فيستبشرون بمن وراءهم .

والحقيقة هذه المسألة تحتاج إلى كثير من التفكير، كيف أن الله عز وجل يجعل الناس أزواجًا، يجمع كل إنسان مع من اشترك معه في همّه واعتنى مثله بشأنه ، وهذا يجعلنا في غاية الخوف من أزواجَنا الذين نجتمع معهم! هل نجتمع مع أهل القرآن فنحبهم ويحبونا؟ ومن ثمَّ نكون أزواجا يوم القيامة، أي يجمع المتماثلين، أم نكون خلاف ذلك! نعوذ بالله من الخذلان.

وهذه ميزة عظيمة للشهداء، الذين كان المنافقين يرون أن نقص أن يتركوا الدنيا ويذهبوا من لذاتها، فكأنه قيل أي شيء فيه نقص الدنيا لا تستحق أن تنظر أن فقدها نقص.

{أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم ورائه كمال السرور
{يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ} أي: يهنّئ بعضهم بعضا بأعظم ما هُنِّأ به وهو: نعمة ربهم وفضله وإحسانه.
{وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} بل ينميه ويشكره ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

تبين أن هؤلاء المؤمنين مشكورين على عملهم مأجورين عليه وأنه سبحانه تعالى لا يضيع أصل أجرهم بل يزيدهم من فضله.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم،

لأن هذا الوقت الذي يستبشرون فيه إنما هو وهم في الحياة البرزخية، وهذا أمر واضح، أما الشأن الثاني الذي استنبطه الشيخ فإنه:

وفيه تلاقي أرواح أهل الخير وزيارة بعضهم بعضا، وتبشير بعضهم بعضا.

يعني في الحياة البرزخية يتلاقى أهل الخير معًا ويزور بعضهم بعض، ويبشر بعضهم بعض بإتيان إخوانهم المؤمنين ، وهذا معنى جيد واضح في الآية كونهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

ويبقى السؤال هل هذا خاص بالشهداء أم أنه عام بأرواح أهل الخير؟

الشيخ اختار أنه عام بأرواح أهل الخير.. والله أعلم بالصواب.

الآيات بعدها فيها خبر عن حالة من حالات النبي صلى الله عليه وسلم وما حصل للمؤمنين لما عادوا من أحد بعدما حصل كما تعلمون أن الصورة العامة كانت صورة الهزيمة، كاد النبي أن يقتل كثرت الجروح في المسلمين، ذهب من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من ذهب..

{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} .

لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد إلى المدينة وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج فخرجوا –على ما بهم من جراح– استجابة لله ولرسوله وطاعة لله ورسوله، فوصلوا إلى "حمراء الأسد" وجاءهم من جاءهم وقال لهم: **{إِنّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ}** وهموا باستئصالكم؛ تخويفا لهم وترهيبا.

لما رأوا نصرا ظنوا أنه مطلقا وظنوا أنهم سيصلون إلى مرادهم وأرادوا استئصال المؤمنين، وهنا ندب الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته بالخروج. وكما هو معلوم سيكون الجيش الذي وقعت فيه الجروح ثقيل، لكنهم استجابوا لله وللرسول وأطاعوا الله والرسول، وكان من أعظم الاختبارات التي مرت على المؤمنين ورفع الله بها شأنه م، فوصلوا إلى حمراء الأسد وجاءهم من جاءهم وقال لهم أن الناس قد جمعوا لكم، أي يخوفهم ويرهبهم.

فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا بالله واتكالا عليه. **{وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ}** أي: كافينا كل ما أهمنا **{وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}** المفوض إليه تدبير عباده والقائم بمصالحهم.

معناها لما خوفوهم علموا أن الله وكيلهم الذي يفوض إليه تدبير العباد وأنه هو الذي يقوم على مصالح العباد واعتقدوا أنه يكفيهم كل ما أهمهم، وهذه الكلمة العظيمة لازالت من منن الله العظيمة علينا فإن العبد مهما أهمّه همّ فما له إلا أن يعترف بأن الله نعم الوكيل إذا وكّل إليه العبد شأنه، ويكفيه همّه فيقول (حسبنا الله) أي كافينا كل ما أهمنا، ونعم من يوكّل إليه الأمر.

{فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

{فَانْقَلَبُوا} أي: رجعوا **{بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ}.**

وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم ، فألقى الله الرعب في قلوبهم واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل، حيث منَّ الله عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتّكال على ربهم.

نصر الرسول صلى الله عليه بالرعب لأن المشركين خافوا واستمروا راجعين إلى مكة.

هذه نعمة بحد ذاتها، أن يوفقهم الله لا يعتذرون لا يتباطؤون إنما يشعرون ويتأكدون أن الله أمرهم ورسوله فيطيعون، وهذا تحقيق للشعور بمنة الله بهذا الرسول فمتى أمر وما أمر فهم بطاعة الله.

ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم؛ هذا سبّب لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

ثم قال تعالى: **{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}** أي: أن ترهيب من رهب من المشركين وقال: إنهم جمعوا لكم ، داعٍ من دعاة الشيطان.

وهذا الشيء العجيب الذي يجب أن نفهمه، أن الإنسان لما يُقبل على طاعة ويعتني بها لابد أن يأتي التخذيل من الشيطان الرجيم، فقال الله تعالى : **{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}** يعني ما ألقي في آذانكم وما جاءكم من خبر أن الناس قد جمعوا لكم إنما هو من ترهيب الشيطان يتكلم بألسنتهم يخوف أولياءهم الذين عدم إيمانهم أو ضعف، وهذا شيء عجيب يأتي أهل الباطل يقول كلام، الشيطان يحرضهم عليه، من يستجيب لهذا الكلام؟ من ضعف إيمانه أو عُدِم إيمانه من أهل الإيمان، العدو معه الشيطان، والمسلمين فيهم ضعاف إيمان وفيهم منافقين، الشيطان يخوّف هؤلاء المؤمنين بهؤلاء الكافرين، أي يوقع الخوف في قلوب من والاه، يكون في صفّ المسلمين لكن يخافوا، يقولون لهم ستنقطع المياه، ستكونون في جوع، لو حججتم جاءتكم الأوباء، لو صمتم جاءتكم الأمراض فيخافون.

أو معنى آخر ذكره المفسرين: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} يعني يخوفكم بأوليائه، يجعل أولياءهم عظماء المفكرين الباحثين يقولون كذا وكذا من الأمور التي تنافي الشريعة. فالصحيح لا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين.

يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم أو ضعف {فلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان فإن نواصيهم بيد الله لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده،

فهناك توحيد الخوف وهذا التوحيد لا يقصد به الخوف الطبيعي أن يخاف الإنسان من المكروه، إنما هذا النوع من الخوف يقصد به أن العبد يعلم أن أمره بيد الله ولا يستطيع الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوه أو يضروه لا يكون إلا بإذن الله فيدفع عن نفسه المخاوف لما تقع عليه، يعني الخوف يقع لكن الاستعاذة بالله والتوكل عليه هي الدافع له،

وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

على كل حال في الآيات الكريمة التي قرأناها عرفنا كم امتنّ الله عز وجل على هذه الأمة بإرسال الرسول.

وعرفنا أن أتباع الرسول لابد أن يحصل لهم تمحيص واختبار وأن البلاءات تأتي فتقسم الناس إلى مؤمن ومنافق ، وأن الإنسان ربما كان فيه خصلة إيمان وخصلة كفر، فيأتي البلاء يكون أقرب للإيمان أو أقرب للكفر بناءً على حاله مع هذا البلاء.

وليُعلم أن النبي الكريم الذي امتنّ الله به على المسلمين وقع ما وقع له من البلاءات العظيمة كما قرأنا ما وقع له في غزوة أحد وكيف أنه صلى الله عليه وسلم شُجَّ رأسه ودخلت حلقات المغفر في وجنتيه، وكيف كُسرت رباعيته وهذا كله الذي حصل له صلى الله عليه وسلم كان من قدر الله، وهذا القدر لم يكن لشيء إلا لأن يتميز المؤمنين من المنافقين وليرتفع مكان رسولنا الكريم، وهذا الرسول الكريم مع ما أصابه من قتل عمه ومن اعتداءهم عليه حتى كادوا يقتلوه قال: كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم! فدعا عليهم لأنهم وصل بهم الحال إلى أن يمثلوا بجثث القتلى ، ومع ذلك قيل له كما في أول السورة: {ليس لك من الأمر شيء}.

ولو قرأتم السورة بتمعن سيأتيكم كيف أنّ الله عز وجل امتحن المسلمين بهذا الامتحان العظيم، وكيف أنهم توالت عليهم المصائب، وكيف كان فيهم من ظهر قوة إيمانه وكيف أنّ من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم من كان يطلب الموت منهم أنس ابن النضر وهو الذي لقي الله وفي جسده بضع وثمانون ما بين ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم ! وغيرهم من أصحاب النبي الكريم.

فهذه السنة الطاهرة تميزت بأمر عجيب في ذاك اليوم أنهم في وسط هذا القتال { أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا } من يتصور أن النعاس يأتي لهؤلاء المقاتلين ! {يغشى طائفة منكم وطائفة أخرى قد أهمتهم أنفسهم } وهم المنافقين. يقول أبو طلحة رضي الله عنه: كنت ممن تغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا، يسقط وآخذه فيسقط فآخذه.

هذه الغزوة لها شأن عظيم وأخذت من سورة آل عمران خمسين آية . وصفت أحداثها وتبين أسباب النصر والهزيمة .

وهذا كله يدور فيعود أن نعتقد أن الله امتنّ على هذه الأمة بهذا الرسول الكريم وامتن بهذه الأحداث التي حصلت له، وكلها دروس وعبر تبقى إلى آخر الزمان يتعلم منها الخلق.

اللهمّ أحسن متابعتنا لنبيك واجمع قلوبنا على كتابك، ولا تجعلنا ممن افترق بعد أن بُيّنت له البينات بل اجعلنا ممن تابع بعد اتضاح الصراط المستقيم، وما أقساها على القلب أن نكون مخالفين بعد الهداية واليقين، فإن هذا حال الأقوام الذين لما بين لهم الله وهداهم استحبوا العمى على الهدى نعوذ بالله من الخذلان.

نلتقي غدا بأمر الله ونزداد إيمانا بالرسل الكرام الذين أرسلهم الله لهداية الخلق ومنَّ علينا بهم. والحمدلله رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.